مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 26 عدد: 5 (رت 67) السنة: 2022

الأبعاد التصورية للبنى اللغوية وإشكالياتها الهُوِياتية

جدل العلاقة والتصوّر

The conceptual dimensions of linguistic structures and their identity problems Controversy of relationship and perception

د.مصابيح العربي[1]
جامعة مصطفى اسطمبولي بمعسكر
arabi.misabih@univ-mascara.dz

تاريخ الوصول 2021/02/11 القبول 2021/11/18 النشر على الخط 2022/06/05
Received 11/02/2021 Accepted 18/11/2021 Published online 05/06/2022

ملخص:

تلعب اللّغة دورا هاما في رسم المعالم الثقافية والاجتماعية والفنية والنفسية للإنسان، وذلك من خلال التاثير الفكري والتصوري الذي ينشأ من ممارسة اللغة، فهي ليست مجرّد أداة للتواصل الاجتماعي والتعبير عن حاجات النفس، بل هي نافذة تتشكل فيها الخريطة الذهنية، فترسم الواقع وتصوره وتحدّدُه، وتبني خصوصيات الفرد والمجتمع وتميّزه عن الأغيار، لتبرز هويته الخاصّة وتثير تفاعله مع الأخر، ومن هنا تتجلّى أهمية هذه الورقة؛ في البحث عن العلاقة القائمة بين اللغة والفكر وعناصر الهُوية التي تقتات منها، آملين في أن نخلص في نهاية هذه الدراسة إلى تحديد العلائق الجذرية القائمة بين اللغة والهوية ، وكذا البنى التصورية اللغوية التي تشكّل العالم وتحويه وتسِمُهُ بسيمات مائزة تجعله مختلفا عن التصورات اللغوية الأخرى، ثم نركّز على أهمية اللّغة كعنصر خطير في الحفاظ على هذه المقومات الهُوياتية ،وإغنائها وإثرائها، وإثارة العوامل الفعّالة التي تحييها وتجدّد دماء الأصالة والانتماء فيها.

الكلمات المفتاحية: اللّغة؛ الهُوية؛ التصوّر؛ الفكر؛ الواقع.

Abstract:

Language plays an important role in defining the cultural, social, artistic and psychological features of the human being, through the intellectual and conceptual influence that arises from the practice of language. The peculiarities of the individual and society and distinguishing him from others, to highlight his own identity and provoke his interaction with others, Hence the importance of this paper: In the search for the relationship that exists between language and thought and the elements of identity that feed from it, we hope that at the end of this study we will conclude by identifying the root relationships existing between language and identity, as well as the linguistic perceptual structures that shape, encompass and mark the world with distinct features that make it different from other linguistic conceptions.

Keywords : Language; identity; structures; Thought.

1 المؤلّف المراسل: **د.مصابيح العربي** البريد الإلكتروني: **arabi.misabih@univ-mascara.dz**

1. مقدمة:

تمتلك اللّغة شكلها الخاص وبنيتها الفريدة وحركيتها المستمرة من خلال ما تنتجه من بنى تصورية تشكّل الواقع وتفعّلُه، فهي كائن حي ينمو ويتشكّل ويتحرّك ويبني الصور الذهنية والدلالات الهوياتية، فهي ليست منشئة للمعرفة والثقافة فقط، بل تبني التصورات والرّؤى والمفاهيم، وتشكّل المعالم وتعيّن حدود الواقع وتسِمُه، وترسم خرائطه وصوره ودعائمه.

وحياة الأمة مثل حياة الفرد بل هي ظاهرة فيها أكثر من ظهورها فيه، لأن الأمة إنما تحيا بدثور القديم وتولُّد الجديد، فكأن أفراد الأمة خلايا يتألَّف منها بدن تلك الأمة، وهو يتجدد في قرن كما يتجدد جسم الإنسان في عقْد من عقود تلك القرون؛ وإذا تتبَّعنا نمو الأمة بتوالي الأجيال رأيناها تتفرع وتتشعب، فتصير الأمة الواحدة أمما يتفاوت البعدُ بينها بتفاوت الأزمان والأحوال، وكل أمة من هذه تتشعب بتوالي الدهور إلى أمم أخرى وهكذا إلى غير حد.

2. تعالق اللّغة والفكر

1.2 . أثر اللّغة في طريقة التفكير:

ويتبع الأحياء في الخضوع لهذه النواميس ما هو من قَبيل ظواهر الحياة أو توابعها، "وخاصة ما يتعلق منها بأعمال العقل في الإنسان كاللغة، والعادات، والعلوم، والآداب ونحوها.، فهذه تُعَد من ظواهر حياة الأمة، وهي خاضعة لناموس النمو والتجدد ولناموس الارتقاء العام، ولكلٍّ من هذه الظواهر تاريخ فلسفي طويل، نعبر عنه بتاريخ تمدن الأمة أو تاريخ آدابها أو علومها أو وثقافتها أو نحو ذلك، .وهي أبحاث شائقة فيها فلسفة ونظر، ومن هذا القبيل تاريخ اللغة وآدابها"[1]

إنّ اللغة التي تتحدّث بها تشكّل الطريقة التي تفكّر بها، ربط الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (1632 . 1704 locke) john في كتابه "المقالة" مشكلة المعرفة بقضايا اللغة إذ يقول: "إذا أردنا أن نفهم طبيعة التفكير والمعرفة، فلا بد قبل ذلك من أن نفهم طبيعة اللغة التي بها نفكر ونوصل أفكارنا إلى الغير"، ولما كانت الكلمات إشارات اصطلح عليها البشر، إلا أنها في نظره لا تنوب عن الأشياء بصورة مباشرة، بل تنوب عن الأفكار القائمة مقام الأشياء. وعلى ذلك فالكلمة تنوب عن الفكرة، والفكرة تنوب عن الشيء، والدليل على ذلك أنك قد ترى الواحد منا يستعمل كلمة، في حين أن الفكرة الكامنة وراءها غامضة، بل قد تستعمل كلمات وليس وراءها أية فكرة تقابلها"[2]

يعتبر بعض اللسانيين العرب المحدثين أن المعارف إنما تُستقى عبر مصفاة اللغة، و"ليس من نظرية فلسفية تتخذ الإنسان محورا لها إلا وهي عاكفة في يوم من أيام حركتها على طبيعة العقل المدبر عنده من خلال تعاضل آليات التفكير مع أدوات الإفصاح"[3] وهي اللغات البشرية، وإن اكتشاف أسرار اللغة هو الذي يعيننا على اكتشاف أسرار الأشياء في الوجود"[4] .

أما عن الفكر فهو المضمون الخفي والطاقة القصوى للكلام، هو المعنى الذي نكشف عنه عندما نتأمل القيمة التصورية لكل وحدة من وحدات الكلام... والكلام بالنسبة للفكر هو أولا وقبل كل شيء عملية مصاحبة له غير خالقة له على وجه اليقين:

---

[1]–جرجي زيدان، اللغة كائن حي، دار هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص. 12.

[2]– حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط2 .1980، ص31 ،32

[3]–عبد السلام المسدي، العربية والإعراب دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1 ،2010، ص.11

[4]– عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1 ،2010، ص.9

فالكلام "رفيق لهذا الفكر يعمل بدأب ليرتفع إلى مستواه"[1]، واللغة للفكر كالأرقام للحساب، فكما لا يمكن تصور عملية حسابية بدون أرقام، كذلك لا يمكن تصور فكرة بدون ألفاظ.. وتختلف مستويات اللغة من إيجاز إلى إطناب، من لين إلى شدة، إلى ارتفاع.. كلُّ ذلك إنما يكون بمقدار ما تستلزمه الدلالات في الوجدان.

2.2 اللغة ليست مجرّد ناقل محايد:

واللغة ليست مجرد وسيلة تواصل، فهناك علاقة مهمة بين اللغة والوعي، بل قد تكون اللغة شرطا أساسيا له وقدراتنا اللغوية فعالة في إطلاعنا على حالاته (إذا اعتبرنا أنَّ الوعي هو إدراك أفعالنا وقرارتنا)، إذ هي أساسا الطريقة التي يتم تشفير الأفكار بها، لذلك بفضلها تَمكنّا من الوصول إلى أفكارنا وأفكار الآخرين، فالسلوك الاجتماعي وإمكانياتنا العقلية يزيدان تعقيدا بتطور اللغة، وهي تسمح لنا أن نسأل بوضوح عن العلل و التبريرات التي لها دور أساسي في الحصول على المعرفة.

إذا كانت اللغة محايدة، أو مجرّد ناقل لا أكثر، فلا علاقة لها بالمضامين والمحتويات التي تحملها، ولا علاقة لها بالعناصر الهوياتية التي تميّزها، والعلاقة بينهما هي علاقة انفصال وقطيعة بين الحامل والمحمول، والرابط بينهما رابط عارض، آلي، والعلاقة غير عضوية ولا ضرورية، فهي مثل الإناء الذي يُصبُّ فيه السّائل، ولا فرق عند الإناء أن يكون المصبوب ماءً أو لبنا أو عصيرا ...

تُجزمُ أغلب الدراسات المختصّة باللغة، كعلم اللغة النفسي، وعلم اللغة التربوي والاجتماعي وغيرها أنّ اللغة ليست محايدة، بل هي التي تشكّل الرؤى والتصورات، وتحدّد الماهيات والهويات والذوات، وكذا الفكر والشعور والسلوك...

وإذا وقفنا قليلا عند علاقة اللغة بالهُوية، والتي هي القدرة على الشّعور بالذّات والوجود والحضور والخصوصية، حيثُ يُستخدَمُ هذا المصطلح لوصف مفهوم الشّخص وتعبيره عن فرديته، وعلاقته مع المجتمع، والهُويةُ(بضمّ الهاء) من الضمير (هو)، يقول الجرجاني في تعريفاته:"الهُويّة: الأمرُ المتعقّلُ من حيثُ امتيازُهُ عن الأغيار، والامتياز هذا بمعنى الخصوصية، والاختلاف لا يعني التفاضل، وعلى هذا فانتقاء خصوصية الشيء هو انتقاء لوجوده ونفيه"[2].

يبدأ الطفل الصّغير في التعرّف على هويته(الجسدية) من خلال اكتشاف أعضائه ولمسها والتآلف معها، ومع مرور الوقت يتولّد له الشعور بها وأنّها له وهي التي تميّزه عن الأخرين، إن الهُوية الحقيقة الثابتة المستقرّة الواعية هي تلك الهُوية التي تتطابق مع الذّات والفطرة والطبيعة، وأي تغيير في الشكل هو في الحقيقة تغيير في الهُوية الجسدية الطبيعية التي خلق الله الإنسان عليها "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ "[3]، وقد آل الشيطان على نفسه لتغيير هذه الهوية الجسدية ومسخها وتحويلها من خلال مشروعه المتعلّق بتغيير خلق الله" وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا"[4].

إن الهُوية الفطرية الأصيلة الجبلية التي يولد الإنسان عليها هي فطرة التوحيد والإيمان والإسلام، يقول الله عزّ وجلّ:" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ"[5]، وأخذ

[1]– حسن ظاظا، اللسان والإنسان، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط2، 1990، ص. 78

[2] – محمود أمين العالم، حول مفهوم الهوية، مجلة العربي، العدد437، 1995، ص.26

[3]–الآيات 6،7،8 من سورة الانفطار.

[4]–الآية 119 من سورة النساء.

[5]–الآية 30 من سورة الرّوم.

الله عهد هذه الفطرة عبر الشهادة الأولى التي شهد فيها البشر بألوهية الله وربوبيته "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ"[1].

يولدُ المرءُ على الفطرة النقية الصّافية، ثم يخضع لجملة من المؤثرات تثبت هذه الفطرة أو تزيحها عن المشهد، ولذلك يرسل الله الأنبياء برسائل تذكر الإنسان بفطرته وميثاقه القديم الذي عقده مع الله، ميثاق الهُوية الأصيلة، وإذ نتحدّث عن هذه الأصالة فإنّنا لا ننفي خضوعها لمتغيّرات وظروف ومعطيات تقويها وتفعّلها وتجدّدها، فالهُوية اللسانية العربية هوية نهلت من الأخر واستوعبته وأفادت منه.

3.2 . علاقة اللّغة بالهُوية:

ولا يمكن الحديث عن اللغة دون الحديث عن الهوية لأن اللغة تحمل هموم متكلميها وتنظم سلوكهم وتفاعلهم وتوحد انتمائهم. فقيمة اللغة إذن ليست في طبيعتها ولا تقع في أساس مكوناتها الداخلية إنما هي فكرة أو مفهوم أو صفة ميزها الناس بها وتفاهموا على الاعتراف بها واعتبارها فيها دون سواها، "وهي بالتالي تحليل رؤية هؤلاء الناس للواقع الذي يعيشونه وتعكس انطباعاتهم وتلقيهم للأحداث التي يمرون بها"[2]

إن اللغة ملتحمة أشد الالتحام بالعقيدة، فكثيرا ممن يثيرون مشكل اللغة في وقت من الأوقات إنما يخافون عقائدية لم يكادوا يصرحون بها علانية، وعلماء اللسان يعرفون اليوم بتداخل موضوع اللغة والإيديولوجية إلى حد أن بعضهم ذهب إلى أن تعلم أية لغة من اللغات حتى اللغات العلمية، ما هو في نهاية الأمر إلا تعلم لعقائدية الناطقين بتلك اللغة، "لأن اللغة كما جاء في تعريف بعضهم، هي أداة للتخاطب يمكن بفضلها تحليل التجارب البشرية التي تختلف من مجوعة إلى أخرى.[3]

فلغة كل واحد منا هي عبارة عن خلاصة تجربته في الحياة، ونظرته العقلية والعاطفية فيها، وقد لاحظ علما النفس تلاحم مفهوم اللغة بمفهوم الشخصية فمزجوا بين الكلام والمنطق وخلصوا إلى العلاقة الجدلية التي تجمع بن القول والعمل وصياغة ذلك في العبارات الشهيرة: "لم يضع امرؤ صواب القول حتى يضع صواب العمل". وقد لاحظوا أيضا أن أصغر شيء يعبر به الإنسان عن ذاته هو الحرف، لأن مجرد النطق بهذا الجزء الصغير من الكلمة يكشف عن سريرة الإنسان ويبرز ذاته. فالنطق بحرف واحد يمكن السامع من المتكلم، فيعرف شخصه ويميز حاله ويدرك أنه صغير أو كبير، ذكرا أو أنثى... وكلما استرسل المتكلم في الكلام ازداد انكشافا للسامع فيعرف لونه أو دينه أو موطنه وحتى قسمات وجهه، وقدّه إن كان من أهل الفراسة.

إن اللغة سبيل المرء إلى معرفته لذاته ولمحيطه، فإنها في الوقت نفسه تفرض على المرء قيودا تمنعه من تخطيها. فإذا أراد شخص ما أن يعبر عن مكنوناته، أو أن يتواصل مع إخوانه، أو أن يعي ما يجيش في نفسه، فإنه يستعمل في دلك ما تقدم اللغة إليه من مفردات وتراكيب، وهو يبقى في ذلك أسير هذه المفردات والتراكيب. وليس الأدب عموما، والشعر خصوصا، في هدا المجال سوى ثورة على سلطان اللغة وجبروتها، إنها ثورة تهدف إلى القفز فوق ما تقدمه اللغة من استعمالات مطروقة أو مفردات عادية أو تراكيب فقدت من قوة التعبير فيها لكثرة استعمالها.

---

[1]–الآية 172 من سورة الاعراف.

[2]– انظر، بسام بركة: اللغة العربية القيمة والهوية، مجلة العربي، العدد 528، نوفمبر 2002، ص 86

[3]–بسام بركة، اللغة العربية القيمة والهوية، مرجع سابق، 84

ولا بد من أن يقودنا الاعتراف بأهمية اللغة في تكوين المفاهيم العقلية والتصورات الذهنية عند الإنسان إلى التأكيد على أن معرفة اللغة كبنية فكرية هي السبيل الوحيد لمعرفة القوالب لفكرية الأخرى عند البشر، مثل الفكر الأسطوري والفكر الديني والفكر العلمي والفكر الفني.

فإدوار سابير أول فيلسوف استطاع أن يدرج اللسانيات وفلسفة اللغة والحياة الاجتماعية في دراسة شاملة للبنية الاجتماعية عند الفرد كما عند الجماعة، وهو وضع بذلك الأسس التي تربط علم الأنثروبولوجيا بدراسة اللغة. إنه يحدد اللغة وعلاقاتها بالمجتمع بما يلي: إن اللغة التي تنتمي إلى مجتمع بشري معين والتي يتكلمها أبناؤه ويفكرون بواسطتها هي التي تنظم تجربة هذا المجتمع، وهي التي تصوغ بالتالي "عالمه" و"واقعه الحقيقي"، فكل لغة تنطوي على رؤية خاصة للعالم[1].

أما لغة العرب وما أعطته من حمولة دلالية للفظ "عرب" وهندست فيه من دلالات ومعاني، فهو الذي قد يدلنا على ذلك النسق الدلالي الذي يفسر تصور العرب لذاتهم وهويتهم أو يكشف لنا من خلال توليد المعاني التي يحملها لفظ "عرب" في لغة العرب قبل تشكل أمة العرب نفسها[2] ، ويشير محمد الطيبي أيضا أن اللغة ومن منظور أنثروبولوجيا اللغة، تمثل وعاء الجماعة، بها تدرك ذاتها الجماعية التي تتطور من خلال أشكال التعبير إلى هوية ثقافية متميزة. وهذه تقريبا فكرة مورغان في تعريفه للقبيلة من وجهة نظره هي وإن تربطها أواصر الدم فإنها نظام سياسي لأهله، له حدود ترابية ومنطوقات وقيادات.[3]

لقد كان لرسالة الإسلام وتعاليمها الوقع الواضح على تبلور هوية العرب كاملة مدمجة في قالب تنظيم جعل منهم أمة واحدة متماسكة.

من ناحية أخرى، فإن اللغة التي تتشكل لحاجة اجتماعية وضمن إطار المجتمع الواحد تؤثر – وبشكل مباشر – على إدراك هذا المجتمع لمحيطه وواقعه، وهي تتمتع بدور رئيسي وفعال في عملية المعرفة، أي أنها تقود الإنسان الفرد والجماعة في المعرفة، أي أنها تقود الإنسان الفرد والجماعة في عملية "استكشاف" العالم الخارجي، فهي تؤثر تأثيرا مباشرا في التجربة الفردية والاجتماعية على حد سواء.

يقول سابير إن اللغة تتحكم كثيرا بأفكارنا المتعلقة بالمسائل الاجتماعية، ومن الخطأ تصور أن الإنسان يتكيف مع واقعه دون استخدام اللغة، أو أن اللغة مجرد وسيلة لحل مشاكل الاتصال والتفكير. إن العالم الواقع مبني بطريقة لا واعية على أساس عادات الناس اللغوية وعلى أساس استعمالاتهم للغتهم الأم.[4]

وليس العالم سوى فيض من الصور المختلفة في أشكالها وألوانها، يلتقطها دماغ الإنسان وينظمها بفضل بنية النظام اللغوي الذي يتكلمه. يقول لي وورف: "إننا نجزئ الطبيعة تبعًا للخطوط التي ترسمها لنا لغتنا الأم، ونحن نقوم بتقسيم الطبيعة تقسيما منهجيا، وننظمها ضمن مفاهيم متمايزة، ونعطيها دلائل بموجب اتفاقية تحدد رؤيتنا للعالم، وهذه الاتفاقية معترف بها من قبل الجماعة اللسانية التي ننتمي إليها، وهي منظمة تبعا لنماذج لغتنا."

---

[1]- المرجع نفسه، ص.76

[2]- محمد الطيبي، العرب الأصول والهوية، دار الغرب، 2002، ص. 139

[3]- محمد الطيبي، العرب الأصول والهوية، مرجع سابق، ص81.

[4]-المرجع نفسه، ص84.

ولا تعني كلمة "الطبيعة" في هذا المجال الطبيعة الخارجية فقط، بل تضم كل ظواهر الحياة الفكرية والوعي البشري، من إدراك العالم الخارجي إلى عملية التفكير المجرد. ذلك لأن الفكر ذاته يعني في هذه النظرية التفكير بلغة معينة. فكل لغة عبارة عن نظام شامل من "القوالب" الثابتة.

وإذا كان الماء والهواء، هما قوام الأحياء، كلها سواء كانت إنسانية أو حيوانية أو نباتية فاليد واللغة كالماء والهواء. فاليد الإنسانية أداة، لا تباريها أداة أخرى، في تمكن الإنسان مما تمكن ويتمكن منه، ولهذا سخر الله هذه الأداة العجيبة في خدمة الإنسان فقال تعالى: "قادرينَ على أَنْ نسَويَ". وفسرت هذه التسوية، بتغير خلقها إلى ما يشبه حق البعير استواء، فلا ينتفع الإنسان بها، أكثر من انتفاع البعير بحقه فلا حضارة ولا مدنية ولا رقي، ولا تمكن له من الحياة، ولا سيطرة له عليها، وإذا كانت اليد الأداة العملية فاللغة أداته الفكرية والقولية.[1] ولهذا امتن الخالق على الإنسان بها، امتنانا عليه باليد.

فالإنسان حيوان غير أنه حيوان ناطق مبين، فاليد واللغة كما ذهب "هنري" تنحصر فيهما البشرية. فهي اللتان تفصلان بين نهاية التاريخ الحيواني وبداية التاريخ البشري أو إذا عجب المرء مما ابتكره الإنسان فاللغة ما أعجب المبتكرات التي أظهرها التطور الإنساني.

فاللغة ليست عجيبة بذاتها، ولا بالجهاز الذي يصدرها والذي يتمثل في تنوع الأصوات فحسب، بل هي عجيبة كذلك في الوظيفة التي تؤديها، فهي لكونها أداة التفكير تمكن الإنسان من الشعور بالذات، ومن الاتصال والاحتكاك بغيره، فبفصلها تكونت الجماعات الإنسانية، فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود اللغة.

ومن أهم أسس وحدة الأمة ومظهر هويتها عبر التاريخ الثقافة، وأن اللغة العربية وأساليب الكتابة المنسجمة مع مفرداتها وطبيعة تركيبها تكون العنصر الأساسي الجامع لهذه الثقافة.

وما من شك أن الحديث الشريف الذي يحثنا أن نتعلم "من المهد إلى اللحد" يصدق أول ما يصدق على تعلم اللغات، وذلك أن الإنسان قد يقضي العمر كله من غير أن يحيط بلغة قوية، ناهيك عن اللغات الحية الأخرى التي أصبح لزاما عليه أن يتعلمها، إذا كان حريصا على مواكب العصر، والإطلاع على ما يحدث من أفكار والانفتاح على العالم الخارجي، وحماية نفسه من كل خطر قد يهدد هويته، لأن من تعلم لغة قوم، فقد آمن شرهم كما جاد فيه الأثر.

إن القضايا اللغوية أشبه ما تكون بالقضايا المصرفية ولذلك أصبح اللسانيون يتحدثون اليوم عن رصيد الإنسان من المفردات، كما لو أن هذا الرصيد شبيه برصيد الإنسان في البنك. وكما أن الرصيد المصرفي يتعرض للتضخم المالي، حيث يفقد جزءا من قدرته الشرائية عندما تفقد الأوراق والقطع النقدية التعامل بها بين الناس قيمها فكذلك المفردات المتداولة بين الناس تتحول في تحصر الانحطاط إلى مجرد ألفاظ هشة ترددها الألسنة عندما تفقد خصوصياتها الفكرية، أي دعامتها من الأفكار التي هي للثقافة بمثابة الاحتياط من الذهب للاقتصاد، وكما أن التضخم المالي يفقد العملة قيمتها ويجعلها زهيدة رخيصة، فكذلك السلوك اللغوي ينتهي به المطاف إلى نوع من الثرثرة في الكلام، واللفظية الجوفاء في الكتابة أو النشر. والواقع أن اللغة العربية منطلق للفكر ونظام للقيم الجماعية.

[1] – ج. فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1951، ص 5

فالحديث عن اللغة لا ينفصل عن الحديث عن دالة الفكر العربي، لأن اللغة تمثل السبيل لاستكشاف حوافل الأمة، فمن خلال ألفاظها تعبر عن كوامن الإحساس بالمواطنة والشعور بالصلة، والتوافق بالمشاعر وهي من أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أبناء الأمة الواحدة.

فهي التي تحول الإنسان إلى كائن اجتماعي يتحسس الواقع، ويستشرف الخصائص المميزة التي تترسب في كل إشاراتها ودلالاتها. وقد وجد فيها العرب منذ أقدم العصور، كغيرهم من الأمم، صفة الملازمة للفرد في حياته وتسربها إلى أعماقه حسا ووجدانا، وتوغلها في نفسه للتعبير عن كيانه وخطراته ورغباته، وهي بالتالي تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متكاملا متماسكا، تحكم قواعدها وأصولها. ومن هنا أصبحت اللغة تمثل الحبل المتين الذي وحد بين رغباتهم ومطامحهم وتجعل قوميتهم وهويتهم متماسكة.

فما هي القوى التي تحرك التطور السياسي والقومي؟ والهوية الوطنية وما هو العنصر الديناميكي الذي يدفع بالحركة، فيفرض التنقل من وضع للآخر، إنه ليس الدولة كما زعم هيغل، وهو ليس الأمة كما رد عليه هردز، إنها حقيقة معنوية أعظم وأبقى وأكثر خلودا من كل ذلك، إنه روح الشعب: أو كما يقول موس : (Mosse)"إن روح الشعب هي القوة الخفية المعنوية التي تسيطر على الجماعة فتفرض الترابط وتتحدى الأحداث وتنتظر اللحظة المناسبة لتتفجر حقيقة واقعة، فإذا بها أمة ودولة، بل وظيفة حضارية وقيادة إنسانية. إن روح الشعب هي وحدها محور التطور إذا الزعيم هو الذي يملك الحساسية والعلاقة المباشرة الخفية مع روح الشعب. وما روح الشعب وما الذي يسمح باستمراريتها رغم الأحداث؟ إنها اللغة أقدس الأقداس"[1]

-اللغة هي التي تمكن روح الشعب في طقوسها وأساطيرها ورموزها وتقاليدها بل ومعانيها. اللغة المتداولة المتنقلة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر أو عبر مسالك خفية غير واضحة، ولكنها ثابتة، هي وحدها التي تحمي كنوز المعرفة وصلابة الإيمان وقوة الانتماء.

-فلا يوجد شعب أو أمة لا تملك لغة، إن اللغة هي الشرط الأساسي الذي يعني انتقاؤه انتقاء الأمة أو كما يقول فلاسفة الرومان(Sine qua non) ، إنها بهذا المعنى أحد المقومات الأساسية التي بدونها لا مجال للحديث عن مفهوم المجتمع القومي والهوية الوطنية.

إن الهوية كوحدة كلية حين يتعرض جزء منها إلى التهديد فإنها تسعى للدفاع عن نفسها ومكوناتها وذلك عن طريق الأسلوب والإستراتيجية المناسب لطبيعة الخطر. فهي بذلك تنتعش وتتقلص أو تهادن أو تدافع وتهاجم كأي كائن حي له ميكانيزمات البقاء.

إن اللغة هي التعبير الحقيقي عن ذكاء الشعب، حيث أن الطابع الفكري لكل شعب، إنما يتجسد عبر الألفاظ والعبارات التي تتكون منها اللغة. اللغة وحدها هي التي تسمح بالاحتفاظ بالتقاليد ونقلها من جيل إلى جيل. وفي هذه التقاليد تجد الأساطير تعبيراتها الرمزية والأغاني المتداولة مصادرها الحقيقة، حيثُ يقول هردز في هذا المعنى: "اللغة هي تعبير عن تلقائية روح الشعب، إنها عصير الحياة للأمة. الضمير القومي للأمة لا يمكن أن يتبلور إلا من خلال الأدب الذي تخلقه قريحة لكل الأمة"[2]

[1]- سمدون حمادي وآخرون، اللغة العربية والوعي القومي، بيروت 1984، ص 259

[2]- المرجع نفسه،ص.265

إن اللغة العربية لا تعرف الحدود السياسية والجغرافية بل تتعدى ذلك لأنها تراكم وانصهار للمقومات الموحدة كونها تصدر عن منابع متعددة المرجعيات، ففي العراق أشورية وفي مصر مرجعية قبطية، فرعونية، إسلامية ومعاصرة، وفي لبنان وسوريا وفلسطين فينيقية، وفي المغرب فينيقية وبربرية، وفي الصومال والسودان تراث إفريقيا السوداء ومن ثم فإنها تسهم في بناء مذهب إنساني جديد وتاريخي في الوقت نفسه، واللغة في الحقيقة تكشف عن ذات الإنسان وعن أسراره كينونته حتى ولو أراد أن يخفي ذلك عن الناس.

إننا درك أهمية اللغة من خلال ارتباطها الوثيق بالأمة، فغالبا ما تقترن اللغة باسم الأمة وهويتها القومية، فتصبح أساسا مميزا لها عن بقية الأمم في حالة التعرف عليها وعلى الأفراد المنتمين لها، فنقول على سبيل المثال، إن للعرب لغتهم وهي اللغة العربية وللفرنسيين لغتهم وهي اللغة الفرنسية وللألماني لغتهم وهي اللغة الألمانية وهكذا...

يقول ساطع الحصري: "إن اللغة سواء قلنا أنها خل دفعة واحدة من قبل الله، أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجيا بعمل العقل، فلا يمكن أن نشك في أنها – في الحالة الراهنة – هي التي تخلق العقل أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا، وتسدده، وتوجهه توجيها خاصا... من ثمة فاللغة القومية تعتبر بمثابة الوعاء الذي تتشكل به وتحفظ فيه، وتنتقل بواسطته أفكار الشعب، حيث إن لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، فقلب الشعب ينبض في لغته وروحه وتكمن في بقاء هذه اللغة.[1]

ولما كانت اللغة بمنزلة القلب والروح للأمة، فإن يتعين عل كل أمة أن تتمسك بلغتها الخاصة تمسكها بحياته وتعتبر هذا التمسك بمثابة الواجب المقدس والحق المشروع الذي تهون في سبيله أرواح الأفراد.

إن الشعوب التي تتكلم لغة (أم) واحدة، تكون ذات قلب واحد، وروح مشتركة، ولذلك تكون أمة مشتركة يتوق أفرادها إلى العيش تحت لواء دولة واحدة،، يبقى دائما متأججا في أعماق الأفراد، كالنار تحت الرماد، لا تلبث أن تشتعل بمجرد أن تذرو الرياح القومية ذلك الرماد.(20)

ذلك أن أي شعب من الشعوب لا يفقد حياته وكيانه تحت أي تأثير خارجي إلا عندما يفقد لغته ويصبح من الناطقين بلغة حكامه... فعندئذ فقط يموت الشعب ويذوب في بوتقة الغير ليصبح جزءا من أمة أخرى.

ففي هذا المعنى يقول جرجي زيدان: "اللغة المختلفة في مملكة واحدة إنما هي حواجز منيعة ضد الاحتكار الفعلي، وتدفع الأفكار، والعادات من عنصر إلى عنصر، فهي مانعة من الالتئام في وحدة قومية واحدة، يمكنك أن تجمع جماعات تحت راية حكم واحد، ولكنك لا تقدر أن تجمعها في قومية واحدة، إذا كانت متعددة اللغات ما لم تعمم فيها لغة واحدة.

وعن اللغة العربية والشخصية القومية لا نجد ما نستشهد به خيرا مما قاله أحد أئمة اللغة القومية العربية وهو الأستاذ محمود تيمور: "فإذا كانت الإمبراطورية العربية قد أسدل ستارها على مسرح السياسة فهي قائمة في مظهر لغوي يربط بين من ضمت من الشعوب، ونحن نعمل بواعثنا الظاهرة والخافية على استبقاء رباطنا الإمبراطوري في صورة اللغة العربية، وكأننا بهذا الرباط نعمل على إحياء إمبراطوريتنا الزائلة، على نحو يلائم ملابساتنا الحضارية، فإيماننا بالفصحى مستمد من إيماننا بتلك الإمبراطورية التي تتجمع

[1]– ساطع الحصري، ما هي القومية ؟، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت)، ص 56

فيها أمجادنا التليدة، وإننا بذلك الإيمان نستمسك بمقومات شخصيتنا العزيزة علينا وعلى تاريخ الإنسانية جميعا، وفي هذا الاستمساك تلتقي مشاعرنا الطبيعية، لحماية أنفسنا في معترك تنازع البقاء"[1].

إنّ الدور الذي قامت به الرسائل السماوية عبر الأنبياء والرسل هي تذكير الإنسان بعهده القديم مع الله، وتحديد العلاقة بينه وبين خالقه من خلال الفطرة الأصيلة التي وُجد عليها في بداية الخلق، ولا تعني هذه الأصالة الهوياتية الانغلاق والانحباس داخل صندوق مغلق، بل منفتحة في حركية دائمة مع ما يحقق مصلحة الإنسان، واستثمار ما أنتجته البشرية من خير في جميع مناحي حياة الإنسان، لقد أفاد اللسان العربي المبين الذي دوّن به القرآن الكريم من أكثر من عشر لغات غير عربية، وقد اشار السيوطي إلى ذلك في كتابه(المهذّب في ما وقع في القرآن من مُعرب)[2] ، وقد أفاد الخليفة الثّاني عمر بن الخطّاب فيما وصلَ إليه الفرس من تنظيم إداري وعسكري ومالي، كديوان الخراج والشرطة والقضاء وغيره، مع ما يملكه عمر بن الخطّاب من مصفاة سليمة حكيمة لا تلتقط إلا المفيد من حضارات الأخرى، لأنّ عملية الفلترة(التصفية) الهُوياتية كانت متشبّعة بالهوية الفطرية الأصيلة.

4.2 . اللّغة والهُوية الفردية:

تختصّ اللغة بالهوية الفردية التي تميّز كل فرد عن الآخر وتعطيه ميزاته وخصائصه الشكلية والمعنوية والقيمية، فيشعر بذاته ويتفاعل مع الآخر على أساس هذا التمايز، ولو كان النّاس نسخا متشابهة طبق أصل واحد ونموذج موحّد لافتقدت الحياة تنوعها وتوقّفت عن النمو والتطور، ولتعطّلت آلة الانتاج والإبداع والتجديد والتغيير، ويختلّ على إثرها التوازن الحياتي.

تعتبر الهوية اللغوية الفردية في اللغة العربية أحد أشكال التمايز والتنوّع في المذكّر النحوي الحقيقي والمجازي(المعنوي)، على خلاف بعض اللغات اللاتينية الأخرى كالفرنسية والإيطالية والإسبانية والإنجليزية.

لا توجد هوية لغوية فردية في اللغة الفرنسية مثلا: il arrive….elle arrive ؛ أما في المذكر والمؤنث المعنويين، فالعكس صحيح، تُذكّر الشّمسُ (le soleil) ويُؤنّثُ القمرُ (la lune) ، وهذا التأنيث راجع للبنى التصورية لكل لغة ولكل بيئة ولكلّ مجتمع، ومن هنا يمكن أن نؤكّد على أنّ اللغة تلعب دورها في تحديد تصورات الإنسان، وفكره، ونظرته لماهية الأشياء ودلالات الموجودات، إن العربي عندما أنّث الشمس ربّما ربط ذلك بدورها في الإنماء والخصب والإنبات، وهذه صفات مرتبطة بالأنثى أكثر من الذكر، أمّا تذكير القمر فمردُّه إلى قدرة القمر على تبديد الظلمة والخوف، وحراسة النّاس من الذين يحبون العبث في الظلام، وهي صفات ذكورة أكثر منها صفات أنوثة.

[1] – مجلّة التربية، مجلة تربوية ثقافية تصدرها وزارة التربية والتعليم الأساسي، العدد 3، السنة الأولى 1982، ص.12.

[2] –انظر السيوطي، المهذّب في ما وقع في القرآن من معرب،ص.60-65

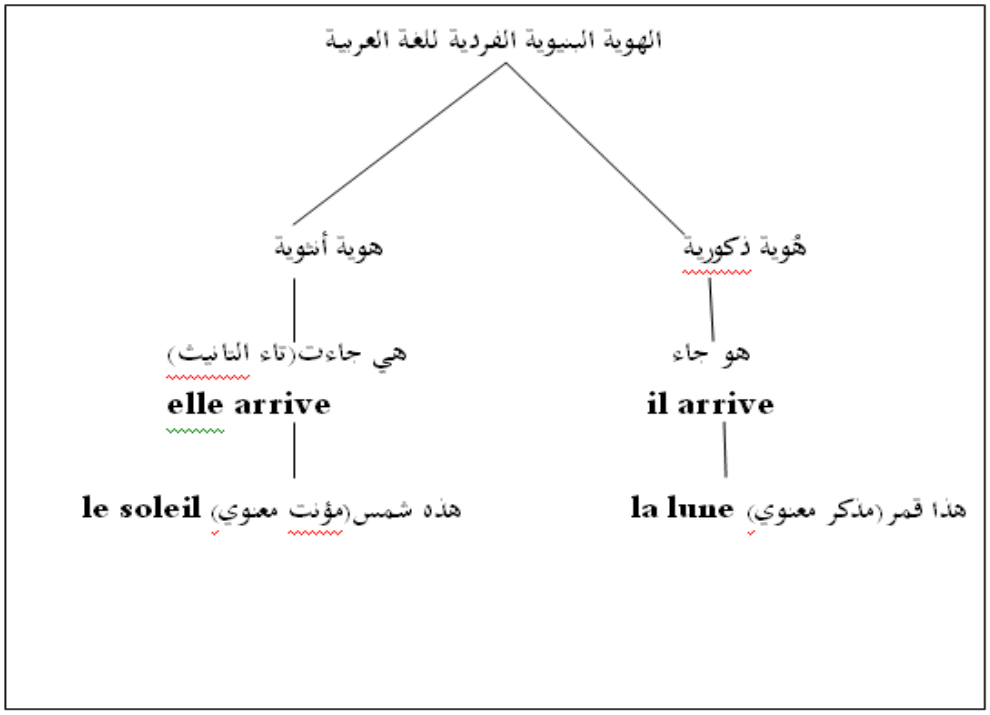

ويُقر لغويون كثيرون بإسناد التنوع في مقولة الجنس النحوي إلى بواعث غير لغوية، وتبعاً للتصورات السيكولوجية الخاصة بكل شعب على حدته، يقول فندريس:" أغلب الظن أن هذا التصنيف يقوم على التصور الذي كان في أذهان أسلافنا الغابرين عن العالم، وقد ساعدت عليه بواعث غيبية ودينية، وقد احتفظ بهذا التقليد حتى بعد أن عجز من يستعملونه عن فهم علته".[1]

إنّ الاختلاف سنّة إلهية فطر الله النّاس عليها، حتى لكأنّما كل إنسان هو بصمة مميزة في إطار جنس الإنسان، فالقدماء جعلوا هذا الاختلاف والتنوّع علة في خلق الله للنّاس، "خلقهم مستعدّين للاختلاف والتفرّق في علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم، ومن ذلك الدّين والطاعة والإيمان والعصيان..فلاختلاف طبيعي في البشر، وفيه من الفوائد والمنافع العلمية والعملية ما لا تظهر مزايا نوعهم بدونه..وقد شرع الله الدّين لتكميل فطرتهم، والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتاب الله الذي لا مجال فيه للاختلاف"[2]

والتفسير ذاته عند الطباطبي الذي يقول:"إنّ اختلاف الطبائع المنهية إلى اختلاف البنى أمر لا مناص منه في العالم الإنساني...ذلك أنّ التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد، مما يؤدّي إلى اختلاف الاستعدادات البدنية والروحية، وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك يظهر اختلاف السلائق والسنن والآداب والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية التي لولاها لم يعش المجتمع الإنساني".[3]

[1]- أمجد طلافحة، عبد الحميد الأقطش، مبادئ العربية في تأنيث الأسماء وتذكيرها: نظرة في مواجهة صعوبة التعلم، مجلة الآداب والعلو الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2014، ص.65

[2]- محمد عمارة، الإسلام والتعددية-الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة-مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2008، ص.25

[3]- محمد عمارة، الإسلام والتعددية-الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة،مرجع سابق، ص.25

3 . اللّغة وتشكيل الواقع:

إذا كانت رؤية الواقع في بداية التكوين تعتمد على الرؤية البصرية أو الذهنية؛ فإن التطور الإنساني جعل الرؤية تنتقل إلى مرحلة صناعة الواقع من خلال مفردات اللغة التي تجسد هذا الواقع وتؤثر فيه، وتجعلنا قادرين على قراءته والهيمنة عليه، "وكلما طورنا آلياتنا لاختراق عالم اللغة؛ فإنما نحرز تقدما لاختراق العالم من خارج اللغة"[1]

وإذا كانت اللغة حاضنة لتعبيرات الإنسان في الوجود، فإن مفرداتها تحيا وتكتسب دلالتها واستمرارية وجودها وتوالدها من خلال الاستخدام الإنساني لها، فالإنسان مسؤول عن إحياء مفردات اللغة أو موتها، وهذا يؤكد جدلية العلاقة بين الإنسان واللغة.

لم تقم اللغة بدور وظيفي فقط باعتبارها أداة التواصل الاجتماعي بين الناس، وإنما "يرى فيكوتسكى أن للغة وظيفتين مختلفتين لهما نفس المستوى من الأهمية. أولهما، الاتصال الخارجي للإنسان مع بقية أبناء جنسه من البشر، والثانية، التحكم الداخلي بأفكاره الداخلية"[2].

تعد اللغة مفتاح المعرفة لفهم واقع قوم ورؤيتهم، ولا يمكن أن تتصور الواقع دون اللغة بتجلياتها وأبعادها. "يؤكد فولف في امبراطورية الكلمة: أن "اللغة هي اللاعب الحقيقي في تاريخ العالم وليس الامراء و الدول والإقتصاد".وهكذا تتلاقى أفكار الكثير من الباحثين بخصوص القول بأن اللغة هي العالم، والعالم هو اللغة. وكما يقول جاك دريدا:"كل لغة تحمل العالم في جوفها"[3].

فإذا أردت السيطرة على قوم، فعليك أن تفهم لغتهم لتهيمن عليهم، فمن خلال اللغة تستطيع تشكيل العالم وإعادة بنائه،"اللغة تشكل العالم، فحدود اللغة التي استعملها هي حدود العالم، فأنا هو عالمي، أما اللغوي همبولد فلم يعتبر اللغة تيسر فهمنا للعالم فقط، وإنما هي أداة لتغيير العالم وإعادة بنائه" [4].

إنّ دلالة الزمن عند العربي هي دلالة أفقية خطية، فإذا أراد التعبير عن مرور الزمن وانقضائه يستعمل عبارة (مضى الزمن)، (الوقت يمضي)، (تمشي بنا الأيام)، أما دلالة الزمن عند الغرب، فهي دلالة عمودية، فهو يقول: الزمن ينزل أو يسيل، أو يصعد، (le temps coule)،(il remonte des siecles) ، وهذا ناتج عن البنية التصورية لدلالة الزمن عند هؤلاء، والتي تتحكم فيها جملة من المركبات الاجتماعية والنفسية والبيئية وغيرها...

وإذا أراد العربي أن يعبّر عمّا يفرحه ويشفي غليله وصدره يقول:(أثلج هذا الأمر صدري)، ويستعمل الفرنسي عبارة: il ma chauffer le cœur ، وذلك للتعبير عن نفس الشّعور، وتتحكم في هذين النقيصين(أثلج/أدفأ) عوامل بيئية واجتماعية ونفسية متعدّدة، فالعربي كان يعيش في الصحراء حيث الحرارة والرمضاء، فاستعمل الثلج للتبريد، أما الأوروبي فكان يعيش في البرودة والثلج فاستعمل الدفء والحرارة.

---

[1] – علي ناصر كنانة، اللغة وعالقياتها، منشورات الجمل، بيروت، 2009 ،ص14

[2] – جودث جرين، التفكير واللغة. ترجمة: عبد الرحمن العبدان. ط1 ،دار عالم الكتب، الرياض، 1990 ،ص10

[3] – نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، رقم 276 ،المجلس الوطني للثقافة والفنون وآلداب، الكويت، 2001 ،ص2

[4] – عمر أوكان، اللغة والخطاب، ط1 ،أفريقيا الشرق، بيروت، الدار البيضاء، 2001 ،ص1

4. خاتمة:

اللغة ظاهرة إنسانية معقّدة، تأخذ صفتها هذه من الإنسان الذي مازال كائنا غامضا عصيا على الفهم، نتيجة ما يتّصف به من تغيّر وتقلّب يصعب على الدّارس أن يحيط بماهيته الفكرية والشعورية والتعبيرية، وكذلك اللّغة وما يتّصل بها من مقوّمات هوياتية كالدّين والأعراف والتقاليد والتصورات والتاريخ وجميع المكونات الحضارية، الأمر الذي يحتاج إلى دراسات أخرى معمّقة ومتخصّصة تبرز الجوانب العلمية والإجرائية لمشروع لغوي وهوياتي يعيد للشخصية العربية دورها الرسالي الإنساني العالمي المتميّز، ويمكن أن نجمل في نهاية هذا البحث عدّة نقاط ونتائج مهمّة يبدو أننا توصّلنا إليها.

-اللغة كائن حي ينمو ويتطور.

-اللغة ليست مجرّد أداة للتواصل.

-اللغة والهُوية وجهان لعملة واحدة.

-البنى التصورية للغة هي التي تشكّل وعينا بما يحيط بنا.

-اللغة تشكّل العالم وترسم الواقع.

-اللغة ليست محايدة، بل هي عنصر حاضر ومؤثّر.

-الهوية هي مجموع التصورات التي تجعلنا متميّزين عن الأخر.

-لا يمكن للإنسان ان يفكّر خارج اللّغة.

قائمة المراجع:

1- أمجد طلافحة، عبد الحميد الأقطش، مبادئ العربية في تأنيث الأسماء وتذكيرها: نظرة في مواجهة صعوبة التعلم، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2014.

2- بسام بركة: اللغة العربية القيمة والهوية، مجلة العربي، العدد 528، نوفمبر 2002.

3- ج. فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1951.

4- جرجي زيدان، اللغة كائن حي، دار هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

5 - جودث جرين، التفكير واللغة. ترجمة: عبد الرحمن العبدان. ط1 ،دار عالم الكتب، الرياض، 1990.

6 - حسن ظاظا، اللسان والإنسان، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط2، 1990.

7 - حنفي بن عبيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط2 .1980.

8- ساطع الحصري، ما هي القومية ؟، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت).

9 - سمدون حمادي وآخرون، اللغة العربية والوعي القومي، بيروت 1984، ص 259

10- السيوطي، المهذّب في ما وقع في القرآن من معرب.

11 – علي ناصر كنانة، اللغة وعالئقياتها، منشورات الجمل، بيروت، 2009 .
12 – عمر أوكان، اللغة والخطاب، ط1 ،أفريقيا الشرق، بيروت، الدار البيضاء، 2001 .
13– محمد الطيبي، العرب الأصول والهوية، دار الغرب، 2002 .
14– محمد عمارة، الإسلام والتعددية–الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة–مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2008.
15– محمود أمين العالم، حول مفهوم الهوية، مجلة العربي، العدد437، 1995.
16– نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، رقم 276 ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،2001 .
17– عبد السلام المسدي، العربية والإعراب دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1 ،2010.
18– عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1 ،2010.